إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الخامسة عشرة ـ العدد الستّون ـ شتاء ١٤٠٤ش/ كانون الأول ٢٠٢٥م
https://doi.org/10.82401/roc.2025.1220675
صص ١٦٠ ـ ١٣٧

تحليـــل الخطاب والأيديولوجيا فى رواية "النخلة والجيران" لغائب طعمة فرمان على ضوء نظرية فركلاف

على خوش گفتار*
عباس گنجعلى (الكاتب المسؤول)**

الملخص

يعدُّ تحليل الخطاب فى الأعمال الأدبية من المناهج المهمة فى النقد الأدبى المعاصر، والذى احتل مساحة كبيرة من النقد اليوم بفروعه وأشكاله المختلفة. ومن أبرز هذه التوجهات "تحليل الخطاب النقدى". والمنهج هذا ينظر إلى اللغة باعتبارها منتجا اجتماعيا، فيدرس العلاقة الوثيقة بين العمل والإيديولوجيا، كما يدرس العلاقة بين السلطة والمجتمع. وإن منهج فركلاف فى تحليل الخطاب النقـــدى هو المنهج الأبرز والأكثر شمولاً وقبولاً الذى رحّب به الكثير من الباحثين. وذهب فركلاف فى نظريته إلى أنه يمكن فهم محتوى العمل ورسالته الاجتماعية والوصول إلى علاقات القوة والعلاقات الاجتماعية من خلال اللغة فى إطار المحاور الثلاثة؛ أى الوصف والتفسير والتبيين. وهذه الورقة البحثية باعتمادها على المنهج الوصفى التحليلى وبناءً على النظرية المشار إليها، تحاول أن تدرس الرواية الشهيرة "النخلة والجيران" للكاتب غائب طعمة فرمان استكشافا الخطاب والأيديولوجية السائدة فى الرواية المذكورة من خلال فحص المستويات الثلاثة؛ أى الوصف والتفسير والتبيين، ثمّ المكوّنات الأساسية لكل من هذه المستويات فى الرواية، من أجل تحديد أدلة لفهم المجتمع العراقى بعد الحرب العالمية الثانية، والذى يسعى فرمان إلى تفسيره من خلال نهجه الواقعى. ومن أهم ما توصل إليه البحث أن رواية المذكورة على المستوى الوصف، تعتبر عملاً شعبياً يتميز باللغة المحلية والتعابير العامية، كما أنها تحكى قصة سياسية واجتماعية على مستوى التفسير ساعية إلى تحليل الأوضاع الاقتصادية السائدة فى العراق. وعلى مستوى التبيين فإنها تشير إلى وجود خطاب الجمود لدى المناضلين، كما أنّ فرمان يصور خطاب الركود والعزلة السائدة فى العراق بعد الحرب العالمية الثانية، ويسعى إلى تعزيز خطاب العاطفة والقومية للخروج من هذا المأزق. ومن خلال تصوير الركود السياسى والاجتماعى فى العراق بأسلوب واقعى، أشار الكاتب إلى استمرار الاستعمار ونشوئه نتيجة لهذا السلوك.

الكلمـــات الدليلية: السردانية العربية، الخطاب، الأيديولوجيا، فركلاف، غائب طعمة فرمان، النخلة والجيران.

---

*. طالـــب الدكتوراه فى اللغة العربيّة وآدابها، قســـم اللغة العربيّة وآدابهـــا، كلّية الإلهيات والمعارف الإسلامية، جامعة الحكيم السبزوارى، سبزوار، إيران
**. أســـتاذ فى قســـم اللغة العربيّة وآدابها،كلّية الإلهيات والمعارف الإســـلامية، جامعة الحكيم السبزوارى، سبزوار، إيران a.ganjali@hsu.ac.ir
تاريخ الاستلام: ١٤٤٧/٠٤/١٦ق تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠٧/١٧ق

المقدمة

إن دراســـة الأعمال الأدبية من وجهة نظر علم الاجتماع وضرورة اكتشاف وتبيين العلاقة بين الأعمال الأدبية والبيئة والســـياق الذى ولدت فيه يعد من أهم المناهج فى بحث النقد الأدبى المعاصر. وفى هذا الإطار، تم النظر فى نظرية تحليل الخطاب النقدى لفركلاف، كما تم النظر فى التحليلات التى تجاوزت مستوى الكلمات لفحص الخطاب والعلاقة بين كمية البنية الفوقية والخارجية فى العمل. «تحليل الخطاب النقدى هو تحليل أيديولوجى، يكشف عن وجه الأيديولوجيات والقوى الخفية وراء النصوص الإعلامية والأدبية والسياســـية والقضائية، وبشكل عام، هو كشـــف عن سر الأشكال الخطابية لإنتاج النصوص وتفســـيرها ودورها فـــى رؤى الأفراد وأحكامهـــم.» (آقاگل‌زاده، ١٣٩٠ش: ١٦٠) ومـــن النقاط المهمة فى منهج التحليل النقدى للخطاب بشـــكل عام وفى تحليل الخطاب النقدى بشـــكل خاص أن النص والقضايا الاجتماعية لا تربطهما دائما علاقة مباشـــرة، بل توجد بينهما علاقة غير مباشرة ورمزية أحيانا. لذلك، ينبغى لتحليل الخطاب أن يحلل النص ويعبر عن القضايا الخفية وراء النصوص؛ بعبارة أخرى، «يجب على تحليل الخطاب أن يشـــرح ويقول ما هى الأفكار التى كانت لدى المتحدث (أو الكاتب)، وفى الواقع، يكشـــف عن الوجه الخفى للنص.» (يارمحمدى، ١٣٨٣ش: ١٨٢) يسمح تحليل الخطاب للباحث بملاحظة جذور وتأثير النص الأدبى على القضايا السياسية والاجتماعية، ويســـمح للقارئ بفهم ظروف المجتمع فى العصر الذى تم فيه إنشاء النص. فى الواقع، يتواصل تحليل الخطاب مع التاريخية الجديدة من جهة، ويحاول اكتشاف وفحص القيمة التاريخية والاجتماعية للأعمال الأدبية.

تُعد دراســـة القضايا العراقية المعاصرة ذات أهمية بالغة. فتاريخ العراق المضطرب فى العصر الحديث يتطلب دراســـته بكل الطرق الممكنة، ســـواءً من خلال النصوص التاريخية والسياسية أو من خلال النصوص الأدبية. ومن بين الفترات التاريخية التى مر بها العراق، تشـــكل فترة الانتداب البريطانى أهمية خاصة، فهى تمثل الوضع الذى أدى إلى الثورة القومية ثم صعود دكتاتورية صدام حسين والتطورات السياسية والاجتماعية اللاحقة. وتعتبر هذه الفترة مثيرة للاهتمام من حيث نوع العلاقة التى كانت تربط الناس

بأصحاب السلطة بسبب الصراع بين الشـــعب العراقى والقوات البريطانية التى كانت فى قمة السلطة. ويعد غائب طعمة فرمان من الأدباء الذين كتبوا أعمالاً أدبية فى هذه الفترة، وتعد أعماله التى اســـتخدم فيها الأســـلوب الواقعى مرآة كاملة لواقع العراق وأوضاعه فى العهـــد الملكى العراقى. نظرًا لمكانة روايـــات فرمان فى عكس الوضع السياسى والاجتماعى فى إحدى أهم الفترات السياسية فى العراق، تسعى هذه المقالة إلى دراســـة العلاقة بين الأعمال الأدبية وظروف المجتمع خلال هذه الفترة. وللوصول إلى نتائج ملموســـة ودقيقة، تمت دراســـة هذه القضية من خلال نظرية تحليل الخطاب النقدى لفركلاف.

أسئلة البحث

حاولت هذه الدراسة للإجابة عن الأسئلة التالية:

١. ما هى أنواع الأشـــكال والصيغ اللغوية المستخدمة فى رواية النخلة والجيران وفقا لمستوى الوصف فى نظرية فركلاف؟
٢. ما هى القصة التى يرويها الكاتب فى روايته وكيف؟
٣. ما هى العلاقة بين الأشكال التعبيرية واللغوية والظروف الاجتماعية والخطاب السائد فى العمل حسب نظرية فركلاف؟

فرضيات البحث

١. تخلق الرواية خطابًا هجينًا عبر المزج بين اللغة العامية والفصحى واســـتخدام الرموز والتقنيات الأدبية، بهدف عكس البيئة العراقية وتشـــكيل أداة اتصال فعّالة مع القارئ.
٢. تعكس الرواية التناقضات الاقتصاديـــة والاجتماعية فى العراق بعد الحرب العالمية الثانية عبر صراع خطابى بـــين مؤيدى الوجود البريطانى ومعارضيه، مستخدمةً التناص مع القرآن والأمثال الشعبية لدعم الواقع أو نقده.
٣. تكشـــف الرواية عن علاقة جدلية مع السياق الاجتماعى، حيث تعكس وتُنتج خطاب الجمود الناتج عن القمع السياســـى والظروف الاقتصادية، مما يقوّض

الخطاب النضالي ويؤدى إلى قبول نسبي للوجود البريطاني كحلّ اقتصادى لدى بعض الشرائح المهمشة.

خلفية البحث

تناولت العديد من الأبحاث والدراسات رواية «النخلة والجيران» وأعمال غائب طعمة فرمان الأخرى من زوايا نقدية متعددة، كما طبقت نظرية نورمان فركلاف فى تحليل الخطاب على نصوص روائية مختلفة. وفيما يلى عرض لأبرز هذه الدراسات:

شلبية (١٩٩٦) فى كتابه «غائب طعمة فرمان دراسة مقارنة فى الرواية العراقية» ركز على تحليل السمات الفنية المميزة لأسلوب فرمان الروائى، مع إجراء مقارنات بين تقنياته السردية والاتجاهات السائدة فى الرواية العراقية المعاصرة له. وتوصلت الدراسة إلى أن فرمان تميز بأسلوب واقعى فريد، يعتمد على التوصيف الدقيق للبيئة والشخصيات الشعبية، مما جعله أحد الأعمدة الأساسية للمدرسة الواقعية فى الأدب العراقى.

گوينده (٢٠٠٩م) فى رسالتها للماجستير «رواية العراق، النخلة والجيران نموذجًا» تناولت تطور الشكل الروائى فى الأدب العربى المعاصر، مع اتخاذ رواية "النخلة والجيران" نموذجاً للتطبيق، حيث رصدت أبرز الخصائص الفنية والموضوعية للرواية العربية من خلال هذا النص. وأظهرت الدراسة أن الرواية تمثل علامة فارقة فى مسار الرواية العراقية، حيث نجحت فى توثيق التحولات الاجتماعية والسيكولوجية لفترة زمنية حاسمة.

الخزاعى (٢٠١٦) فى مقالته «تأصيل الأدب الشعبى فى رواية النخلة والجيران لغائب طعمة فرمان» درس الآليات التى وظف من خلالها فرمان الرموز والموروثات والحكايات الشعبية فى بنية روايته، مع تركيز خاص على كيفية انعكاس "الصوت الشعبى" وتجليه فى صورة القيم والنظام الأبوى المهيمن. وخلص البحث إلى أن الرواية تُمثل امتداداً عضوياً للذاكرة الشعبية العراقية، حيث حوّلت المكونات الشفاهية إلى عنصر جمالى ودلالى داخل النص المكتوب.

عبدالرضا (٢٠٢١) في مقالتها «تداخل الفنون في الرواية العراقية: رواية النخلة والجيران للروائي غائب طعمة فرمان نموذجًا» تناولت ظاهرة التداخل الأجناسي والفني في الرواية، محللة كيفية اندماج أنماط تعبيرية مختلفة كالشعر والمسرحية والملحمة والأسطورة، وكذلك تأثيرات فنون السينما والمسرح، في نسيج الخطاب الروائي. وتوصلت الدراسة إلى أن هذا التداخل أسهم في إثراء البنية السردية وخلق نص متعدد الأصوات والطبقات، يفتح أبواباً واسعة للتأويل.

عبدالرحيم وسعدون زاده (٢٠٢٤) في مقالتهما «سيميائية الشخصية في رواية النخلة والجيران لغائب طعمة فرمان» تناولتا الشخصيات الروائية بوصفها علامات سيميائية قادرة على حمل المضامين والدلالات، حيث قاما بتحليل دلالات الأسماء والسمات الشخصية والعلاقات بين الشخوص. وأبرزت الدراسة كيف أن تحليل السيميائيات الشخصية يكشف النقاب عن الرسالة النقدية والاجتماعية الكامنة في العمل، ويعرى آليات تشكل الهوية والعلاقات داخل المجتمع المصغر الذي تصوره الرواية.

خوش گفتار وآخرون (٢٠٢٦) في مقالتهم «تحليل الخطاب النقدي في رواية خمسة أصوات لغائب طعمة فرمان؛ مقاربة في ضوء نظرية نورمان فركلاف» قدموا مقاربة تحليلية تطبق الإطار النظري لفركلاف بمراحله الثلاث (الوصف، التفسير، التبيين) على خطاب رواية "خمسة أصوات". وهدفت الدراسة إلى كشف الآليات الخطابية التي تعبر عن علاقات القوة والتحولات الاجتماعية في العراق. وأسفر التحليل عن نتائج مهمة، أبرزها الكشف عن الدور المركزي لتقنيات أسلوبية محددة كالتكرار واستخدام المفردات المتناقضة واللغة العامية، في تجسيد واقع التمييز الاجتماعي والفوضى السياسية، وكيفية تشكل خطاب احتجاجي من خلال التفاعل بين الواقع الاجتماعي الملتهب وممارسات السلطة القمعية.

ملخص القصة

تدور هذه الرواية حول خبازة تدعى سليمة، تعيش في نفس البيت مع ابن زوجها حسين، ويتم سرد القصة والمشاكل التي تواجهها هاتان الشخصيتان على مدار الكتاب.

تتعدد الشخصيات فى الرواية، ولكلٍّ منها طابعها الخاص وأسلوبها الخاص. ومن نقاط قوة الرواية تصوير الشخصيات، وخاصةً شخصية سليمة، كما أن شخصية مصطفى، فى تقابله مع سليمة، تجذب الانتباه. شخصية استغلالية تحاول أن تصنع من ممتلكات الفقراء ثروة لنفسها. وأيضًا، شخصيات الخالة نشيمة، وتماضر، وبائع الدراجات وطريقة التعامل معهم مثيرة للاهتمام للغاية. تروى هذه الرواية أحوال الناس وحياتهم الاجتماعية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية وعهد الملك فيصل، آخر ملوك العراق. وتقدم للقارئ معلومات وافية عن فترة الاستعمار البريطانى للعراق، حيث استشرى الفقر والفساد والمرض والأمية والتمييز.

المهاد النظرى للبحث

نشأ منهج تحليل الخطاب النقدى، المعروف فى اللغة الأكاديمية والنصوص المتخصصة باسم CDA، فى أوائل تسعينيات القرن العشرين وأصبح أحد أكثر مجالات العلوم الاجتماعية رسوخًا ومكانة فى القرن الحادى والعشرين. بشكل عام، «يمكن تعريف تحليل الخطاب النقدى بأنه برنامج بحثى متعدد التخصصات (أو عبر التخصصات) موجه نحو حل المشكلات.» (وُداک، ٢٠١١م: ٣٨) يتناول هذا النهج العلاقة بين علم الاجتماع والأدب، ويربط فى الواقع بين مجالين مختلفين. ينصب التركيز الرئيسى لتحليل الخطاب النقدى على السلطة، وخاصةً السلطة المُعاد إنتاجها مؤسسيا. (عكاشه، ١٣٩٨ش: ٧١)

يهدف تحليل الخطاب النقدى إلى تحليل العلاقات البنيوية للهيمنة والتمييز والقوة والسيطرة التى تتجلى فى اللغة. فهو يؤكد أن الخطاب أداة فى خدمة السلطة، وغالبًا ما تكون آليات عمله خفية ومعقدة. لذا، فإن أحد أهدافه الأساسية هو الكشف عن هذه الآليات وفضحها. (فرقانى وآخرون، ١٣٩٠ش: ١٣٧) ولا يقتصر هذا التحليل على تفاعل الخطاب مع القوة فحسب، بل يحلل أيضًا تأثيراتها وعواقبها، وكيف تُمارَس على الأفراد والجماعات والمجتمعات. ويعدّ عدم المساواة، الناتج عن آليات تستبعد وتحرم فئات معينة، من أكثر هذه التأثيرات تعقيدًا. (نفس المصدر: ١٣٨)

كما يحظى مفهوم اللغة باهتمام بالغ فى تحليل الخطاب النقدى، الذى يتناولها بوصفها

ممارسة اجتماعية، ويهتم بكيفية نشوء الأيديولوجيات وعلاقات القوة وتجليها عبر الاستخدام اللغوى. (باركر، ٢٠١١: ٢٦) بل إن جوهر هذا المنهج يكمن فى سعيه إلى اكتشاف الكيفية التى تُستخدم بها اللغة لخلق علاقات القوة والأيديولوجيات وإدامتها، وكيف يمكن تحديها وتفكيكها. (نفس المصدر: ١٦٧) ويحدد نورمان فركلاف ثلاث خصائص أساسية للتحليل النقدى للخطاب: أولاً، أنه ليس مجرد تحليل للنص المعزول، بل هو جزء من تحليل منهجى متعدد التخصصات للعلاقات بين الخطاب والعناصر الأخرى فى العملية الاجتماعية. ثانيا، أنه ليس تفسيًرا عامًا للخطاب فحسب، بل يتضمن تحليلاً منهجيا دقيقًا للنصوص ذاتها. ثالثًا، أنه ليس وصفيا محايدًا، بل هو توجيهى نقدى؛ إذ يركز على مظاهر التشوه الاجتماعى فى جوانبها الخطابية، ويقترح سبل معالجتها والحدّ من حدتها. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ١٠) وتشكل هذه المستويات الثلاثة (الوصف، التفسير، التبيين) الإطارَ المنهجى المتكامل الذى من خلاله يفحص الخطاب، بدءًا من الأشكال اللغوية وصولاً إلى تحديد الأيديولوجيا وعلاقات القوة المؤثرة فيه.

تشكل نظرية فركلاف إحدى الركائز الأساسية فى حقل الدراسات الخطابية النقدية، حيث تدمج بين التحليل اللغوى الدقيق والنقد الاجتماعى. ينطلق فركلاف من فكرة أن اللغة شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ٨) وتتضمن هذه الفكرة ثلاث فرضيات أساسية: اللغة جزء لا يتجزأ من المجتمع. اللغة عملية اجتماعية. اللغة عملية تتأثر وتؤثر فى الأجزاء غير اللغوية من المجتمع.

يقدم فركلاف نموذجًا تحليليا ثلاثى الأبعاد يربط بين المستوى النصى الدقيق والمستوى الاجتماعى الأوسع:

مستوى الوصف: ويهتم بالتحليل اللغوى الشكلى للنص (كالمفردات، والقواعد، والصور البلاغية)

مستوى التفسير: ويركز على العلاقة بين عمليات إنتاج النص وتأويله، ويفحص فيه السياق المباشر (الظرفى) والتناص.

مستوى التبيين: ويهدف إلى شرح وتفسير العلاقة الجدلية بين الممارسة الخطابية

(الوصف والتفسير) والممارسة الاجتماعية الأوسع، من حيث علاقات القوة والهيمنة والأيديولوجيا.

يؤكد فركلاف على الطبيعة التفاعلية للنص، فهو ليس منتجًا نهائيا، بل هو موضع صراع وتفاوض على المعنى، تتقاطع فى تشكيله عوامل تاريخية وثقافية واجتماعية وسياسية. ومن هنا، فإن تحليل الخطاب النقدى لا يكتفى بتفسير النص داخليا، بل يربطه بالسياقات الاجتماعية الكبرى التى تُنتجه وتُؤول فيه، ساعيا إلى الكشف عن كيفية إسهام الخطاب فى إنتاج علاقات غير متكافئة أو فى تحديها. (يارمحمدى، ١٣٨٣ش: ٤)

ويمثل هذا الإطار النظرى بمستوياته الثلاثة الأساس المنهجى الذى تنطلق منه هذه الدراسة فى تحليل خطاب رواية «النخلة والجيران»، سعياً للكشف عن الآليات التى تُشكّل من خلالها الأيديولوجيا وعلاقات السلطة فى النص الروائى.

مستوى الوصف

المرحلة الأولى فى نظرية نورمان فركلاف لتحليل الخطاب النقدى هى مستوى الوصف. فى هذه المرحلة، يفحص النص الأدبى بذاته، منفصلاً عن النصوص الأخرى وعن السياق والوضع الاجتماعى. يمكن اعتبار مجموعة السمات الرسمية الموجودة فى النص بمثابة اختيارات محددة بين خيارات المفردات والقواعد النحوية المتاحة التى يستخدمها النص. هذا التحليل تحليلٌ تجريدى للنص. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ١٧٥؛ حدادى، ١٣٩٠ش: ٣٣) لذلک، يقال: «لتحليل نصٍّ ما، ينبغى أولاً ملاحظة أن موضوع الرسالة يلعب دورًا أساسيا فى اختيار نوع اللغة.» (بهلوان نجاد، ١٣٨٧ش: ٤١) فى هذه المرحلة يتم تحديد السطح الخارجى والقشرة الخارجية للعمل، ويتم إعداد الأرضية اللازمة لفهم خطاب العمل فى مرحلة التفسير والتبيين.

إن صياغة العنوان الجذابة هى أول ما يوقف القارئ على مستوى الوصف. عنوانٌ يدلّ أيضًا على تعدد الأشخاص "النخلة والجيران". مع أن شجرة النخيل تبدو وكأنها تُمثّل الشخصية الأنثوية فى القصة، إلا أن هذا ليس المقصود فى الرواية. "شجرة النخيل"،

فهى شجرةٌ لا تختلف فى بعض خصائصها عن الشخصية الأنثوية فى القصة.

الشـــخصية الرئيسية فى الرواية هى امرأة تدعى "ســـليمة" التى تكافح باستمرار لتوفـــير ضروريات الحياة. هذا العنوان مســـتوحى من كلمة "جـــيران" بصيغة الجمع. جيران، عنوان يذكرنا برواية "جيران" الفارسية لأحمد محمود.

فى هذه الرواية، يتضح جليا أن وضع جماعة أو طبقة ومجموعة من الناس المتجاورين يروى فى ســـياق المجتمع العراقى. لذا، يوحى العنوان بالجماعية والروح الاجتماعية وغياب الفردية فى الرواية، ويتحدث الكاتب عن قضية عامة وشاملة.

هناك مســـألة أخرى تجذب القارئ على مســـتوى الوصف وهى استخدام الجمل والتعبيرات العامية، والتى اختارها الكاتب وفقًا للشـــخصيات البســـيطة والمتواضعة، تناســـب هذه اللغة. إن انعكاس حياة الجماهير فى الرواية دفع الكاتب إلى التحدث بلغتهم، وعدم تنظيم عمله بمعزل عن مزاج أبطاله. على ســـبيل المثال، فى بداية الرواية، تُستخدم التعبيرات العامية بوضوح وغزارة:

«قبل أن تغرب الشمس سمع الجيران صوتها

ثالت أسومة العرجة

القرچ خاتونة المحلة

وقال حمادى العربنچى فى الطولة المجاورة لبيتها،

عبخانة... خوب مو عبخانة!

وقال حسين وهو على بعد خطوتين منها:

أنت يومية معذبتنى... مو دا أحلف لچ بالعباس» (فرمان، ١٩٨٨م: ١٧)

ومن الواضح أنه عندما تروى الرواية على أيدى الشخصيات، فإن الكاتب يتحدث بلغتهم العامية الخاصة؛ وعندما يربط أجزاء الكلام، عندما تكون الرواية بلغته الخاصة كراوٍ فإن الكلمـــات تكون بليغة ورسمية. حافظ الكاتب علـــى الطابع المحلى للعراق، وهدفـــه كتابة قصة عراقية تعكس الظروف الاجتماعيـــة والثقافية والعقائدية للعراق. ينوى الكاتب نقل تجربته فى العراق ككاتب، لذا من الطبيعى ألا ينأى بنفسه عن أجواء المجتمع الذى يتحدث عنه أسلوبًا ولغةً.

اللغة المحادثة والحوارات المتكررة فى الرواية، والتى تجعل الرواية تبدو وكأنها لعبة بينج بونج، هى من السمات الشكلية الأخرى للرواية. فى هذه الرواية، يحاول فرمان إدخال الشخصيات نفسها فى القصة ويتجنب التدخل ولعب دور مطلق. فى الواقع، تحاول هذه الرواية خلق صورة مباشرة لمزاج الشخصيات، وكلماتهم، وأفعالهم، مما يسمح للقارئ بالتواصل مع ما تقوله الشخصيات وتفكر فيه دون أى وسيط. وتغطى الحوارات مساحة واسعة من الرواية وتلعب دوراً فعالاً فى تقدم السرد وخلق أجواء الرواية. يجذب الموتيف وبعض الرموز، مثل موتيف النخيل، الانتباه فى الرواية. وقد استخدم الكاتب هذا الموتيف لخلق تشابه وتقارب بين البشر والأشجار.

شجرة النخيل فى هذه الرواية قاحلة، وهى وحيدة كالشخصية الأنثوية فى القصة، وتعتمد على نفسها فقط: «حملتها إى النخلة القميئة، وثبت فيها الماء لتنقع. وذهبتُ إلى الليوان لتنقل حزم الحطب الطرفة لتكسرها فى الحوش وقوداً ليوم غد.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١٨)

لذا، ما يثير الاهتمام فى الرواية هو الدور الرمزى لشجرة النخيل فى القصة. فهى الشجرة الوحيدة التى تُشبه البشر إلى حد كبير. إذا جَرَى الماء فوق رأس النخلة، اختنقت. إذا قُطِعَ رأس النخلة، ماتت، على عكس الأشجار الأخرى التى تُنتج أغصانًا وأوراقًا أكثر. إذا أحرقنا خشب النخلة، فلن ينتج أى فحم، كما هو الحال مع البشر. تعشق أشجار النخيل كالبشر. عمومًا، تُعتبر النخلة شجرةً مقدسةً تُثمر فى السادسة عشرة من عمرها؛ (شلبيه، ١٩٩٦م: ١٤٠) لكن فى رواية "النخلة والجيران"، تشبه سليمة شخصيتها بشجرة نخيل فى حديقتها، وترى أن عدم ثمر الشجرة يشبهها، بل وتقوم بمحادثة النخلة عن همومها ومآسيها. وهناك جزء من القصة حيث لم تعد هناك شجرة نخيل، ويشار إلى ذلك بالكارثة ونهاية العالم: «رأت أمامها نخلتها القميئة تبرك قرب الحائط وسط دائرة سوداء، نخلة مهجورة عاقر مثلها تعيش معها فى هذا البيت الكبير خرساء صماء، تتحمل كل المياه القذرة التى تلقى فى حوضها، ويمر الصيف والشتاء دون أن تحمل طلعا، أو تحضر لها سعفة.» (فرمان، ١٩٨٨م: ٧)

من خلال هذا الوصف يحاول الكاتب أن يروى قصته عن المرأة العراقية والظروف

الصعبة التى تعيشـــها فى المجتمع. المرأة العراقية مضطهدة كشـــجرة النخيل، والتقاليد تسعى إلى تدميرها، لكنها هى صامدة وتقاوم الموت، رغم قحطها وقلة خضرتها.

ومن خلال هذا الرمز يســـعى الكاتب إلى التعبير عن حال المرأة العراقية بأبســـط الوسائل الممكنة، فشجرة النخلة من الأشجار التى يعرفها القارئ العربى والعراقى، وهذا الموتيف يســـهل على القارئ فهم قصد الكاتب وسرده للمرأة. إن استخدام الأوصاف المتكررة والألفاظ المتجانسة كأحد العوامل المكونة للخطاب (مرتضى، ١٩٩٨م: ١٢٨) مكّن الكاتب من الاقتراب بشكل أفضل من هدفه المتمثل فى عكس ظروف العراق بدقة.

عندما يختار الكاتب موضوعًا ما، فإنه يحاول تحليله بدقة من منظور سردى، ويرسم للمتلقى صورة واضحة وكاملة منه. على ســـبيل المثـــال، فى المثال التالى، يتضح مدى دقة الكاتب فى وصف الموضوع: «أدار لها ظهره ومشى. راقبت قامته الميالة إلى القصر تبتعد عنها بتثاقل وبلا مبالاة. مشـــى عبر الحوش الطويل إلى حجرته، وخلفها تنتزى غيظاً، مطعونة مدحورة، عاجزة لاتعرف كيف تصب ما فى دعماقها الملتهبة فى كلمات. ظلّـــت فى وجود الخيبة دقائق أفاقت بعدها على نفســـها فوقع بصرها على الاجانات النحاسية الفارغة المثلومة الحواشى، والملطخة بالعجين الجاف.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١٨)

ومن خلال مطالعة هذه الفقرة التى تصف سليمة بطلة القصة، يتبين لنا محاولة الكاتب وصف الموضوع وسكناته وخصائصه بدقة باســـتخدام الكلمات المناسبة والمنسجمة. يحاول الكاتب تقديم وصـــف كامل للموضوع، مثل كاميرا الفيلم، وتشـــارك مركزية الشخصية فى اســـتخدام مثل هذه السمات. باستخدام هذه التقنية، أعدّ الكاتب مقدمةً لتعريف الجمهور بهذه الشخصية، وصوّر جهودها فى تحظير الخبز. امرأةٌ تكسب عيشها من صنع الخبز، وتُقدّم كقدوةٍ للمرأة العراقية الكادحة.

لقد تم اســـتخدام الأساليب الأدبية التعبيرية والجديدة فى رواية "النخلة والجيران" كأداة لتصوير الأحداث بدقة وفعالية. «اســـتخدم فرمان فـــى روايته، تقنيات إبداعية كشـــاعر متمكن، وهذا ما جعل اللغة جذابة ورغبة القارئ فى قراءة أعماله، وبالطبع، لم تخلُ لغة الكاتب القوية فى السرد من تأثيرٍ فى استخدام التشبيهات والاستعارات.» (النعمان، ١٩٩٦م: ٣٢) ولذلک، اســـتخدم الشاعر التشـــبيهات، كغيرها من الأشكال

اللغويـــة، ليعكس التطورات الاجتماعية، مُثريا بذلک المســـار الفكرى للرواية. فعلى ســـبيل المثال، يقول فى المثال التالى: «مشـــى يخفق بقبقابه المبلل الى حجرته. كانت شبه مظلمة. الســـماية تنير جزءاً من اعلى الحائط. ورأى وجهه المدوّر فى مرآة معلقة على الحائط. كان شاحباً مظللاً مثل لقطة فيلم جهنمى. ولّما ابتسم، فى تكشيره تمثيلية، انفرجت الظلال على وجهه العريضة، وصارت عيناه هالتين من الســـواد، وبرز أنفه.» (فرمان، ١٩٨٨م: ٣١)

وتضمـــن مثل هذه الحالات عدم ترک القضايا التـــى تطرحها الرواية غير مكتملة وغير كاملة، وتوفر للقارئ أدلة لاكتشـــاف أيديولوجية الرواية. على سبيل المثال، فى المثال أعلاه، فإن وصف مصطفى بأنه الشخصية السلبية فى القصة من خلال التشبيهات يســـاعد القارئ على التعرف على عالم هذه الشـــخصية، والذى يتقابل مع الشخصية الرئيســـية والطيبة فى القصة، أى شخصية ســـليمة. وتعتبر هذه الجهود وسيلة لوصف الخطاب والأيديولوجية التى تقوم عليها القصة بشكل صحيح وفهمها بشكل فعال.

مستوى التفسير

المســـتوى الثانى من تحليل الخطاب عند فركلاف هو التفسير. «التفسير مزيج من محتوى النص نفســـه وذاتية المفسّر، أى المعرفة الأساســـية التى يطبقها المفسّر ويقدمها فى تفســـير النص. كذلک، من وجهة نظر المفسّر، فإن السمات الشكلية للنص هى فى الواقع دلائل تعمل على تنشـــيط عناصر ما قبل السياق لدى المفسر، وسيكون التفسير نتاجًا للعلاقة المتبادلة والجدلية بين هذه الدلائل والمعرفة الخلفية لعقل المفسر. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ٢١٥) وعلى مســـتوى التفسير يتم تناول سياقين: ســـياق الموقف وسياق التناص، وكلا السياقين يتم استعراضه ونقده لاحقا فى رواية "النخلة والجيران".

السياق الظرفى

وفيما يتعلق بالســـياق الظرفى ونوع الخطاب، يعتقد فركلاف أن النظام الاجتماعى ينشـــأ من المتطلبات الظرفية (خانيکـــى، ١٣٨٧ش: ٩٤)، ويرتكز فحص الوضع أيضًا على "ما هى القصة"، و"الأطراف المشـــاركة فى القصة"، و"العلاقات بين الأشـــخاص

المشـــاركين في القصة"، وأخيرًا "دور اللغة". كل من هذه المواضيع المذكورة لها علاقة مقابلة بالمحتوى والموضوعات والاتصالات على التوالي. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ١٤٦) إن دراســـة هذه العناصر الأربعة تشكل السياق الظرفي للنص وتوفر للقارئ التعرف على الممثلين على مستوى القصة.

رواية "النخلة والجيران" تحكي قصة اجتماعية سياسية من حيث مضمونها وتسعى إلى تصوير الواقع الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العراقي بعد الحرب العالمية الثانية. عندما كان العراق تحت الحكم البريطاني وكان متأثراً اجتماعياً وسياســياً واقتصادياً بالوجـــود البريطاني في العراق. تحاول الرواية التعبير عـــن الأوضاع في العراق في تلك السنوات بلغة وأسلوب واقعيين، والحديث عن مواجهة الناس للمشاكل، وفقرهم وبؤسهم، وسعيهم للحصول على ضرورات الحياة. في الواقع، تتحدث الرواية عن حالة اجتماعية محددة حيث لا يكون الناس في اتجاه أو ســـياق محدد: «بس اشـــلون يذل من يشاء ويعز من يشـــاء؟ يقفر من يشاء ويغني من يشاء. أنت سامعه قوال الصحابة: مصائب قوم عند قوم فوائد؟... الحرب شـــر وخير، شر هو هذا الغلاء الأسود، صمون السجون والچاي والشكر والخام بالبطايق وميدري واحداش وكت تجي قنبلة وتموته.» (فرمان، ١٩٨٨م: ٢٢)

وفي الواقـــع، حاول الكاتب من خـــلال هذه الصور إظهـــار الوضع الاقتصادي والاجتماعـــي للعراق في الســـنوات التي أعقبت الحرب العالميـــة الثانية بصورة نقية وواقعية. في ظل الظروف الحربية السائدة في العراق، والتي دفعت الجميع إلى البحث عن قطعة خبز وانتهاك المبادئ الأخلاقية لتحقيق أهدافهم. في الواقع، على مســـتوى التفســـير، تصف الرواية جهود الناس من أجل البقاء والتعامل مع الظروف التي أدت إلى استغلال بعض الناس وإفقار آخرين. أدّى هذا الوضع إلى صراع بين مختلف شرائح المجتمع، وتنافســـهم لتحقيق أهدافهم. وفي هذا الصدد، يصوّر الناس على أنهم يسعون إلى المال، وليس لديهم أي هدف آخر. «أكو ناس عدهم قبضة مخ تشـــوفيهم يطلعون ذهب، تشوفيهم ميعرفون شيء، إلا اشلون يطلعون فلوس، والدنيا ما بيها غير الفلوس. اللي عنده عانة ميسوه عشر فلوس.» (المصدر نفسه، ٢٣)

وفى مثل هذه الأمثلة يتم التأكيد بشـــكل واضح علـــى أهمية المال من أجل البقاء واستمرار الحياة. إنهم لا يعرفون سوى المال، وفى الظروف الصعبة التى يجدون أنفسهم فيها، فإن المال هو الدواء الوحيد لألمهم ويعتبر المعيار لمعيشتهم وتنفسهم. وتأكيداً على أهمية المال ودوره المؤثر فى الظروف الاقتصادية الصعبة، يؤكد الكاتب أن كل شـــىء يعتمد على المال وعلى مقدار المال الذى يكسبه السماسرة.

أما فيما يتعلق بالشـــخصيات المشـــاركة فى القصة، فبالرغم من أن الرواية عمل يحتوى على شـــخصيات كثيرة، إلا أنها تعتمد بشكل أكبر على شخصية سليمة. خبازةٌ همّها الوحيد خبزُ الخبزِ الشـــهى لأهلِ الحى. تعيشُ سليمةُ مع ابنِها حسين، الذى قُتلَ والدهُ فى اشـــتباكٍ مع الإنجليز. ولذلک فإن أحد مستويات القصة يصور العلاقات بين العراقيين والبريطانيين، وعلى مســـتوى آخر يصور الصراع بين المطلعين، أو بالأحرى الأشخاص المعنيين بالقصة وهم أهل الحى فى بغداد والبريطانيين. «بسيطة!... الانكليز مالين العراق. مليون انكليزى وهندى وســـيک وكركه. وما علينا من كل شىء. إذا راد الفرن يبيع للانكليز يومية ألف صمونه. ها مو ذهب.» (المصدر نفسه، ٢٦)

وهنا، بالإضافة إلى التأكيد على تعدد الشخصيات والفاعلين فى السياق الاجتماعى للمجتمع العراقى، يتم التأكيد على التباين بين العراقيين والإنجليز فى البنية الاجتماعية. وهم موجودون فى المجتمع ويستهلكون الخبز العراقى، وهذا يشير مجازياً إلى استغلالهم واستعمارهم للعراق ويتحدث عن وجودهم المقلق. بالإضافة إلى هذه القضايا الثانوية، يشـــير الكاتب إلى أحداث اقتصادية رئيسية. على سبيل المثال، يشير إلى الحرب بين العراق وبريطانيا، التى دارت بين العراقيين بقيادة نورى ســـعيد وحكومة رشـــيد على جيلانى، وبين بريطانيا وقوات الحلفاء. «البارحة نورى السعيد أعلن الحرب على دول المحور، راح نفتح جبهة على بحر مرمره نسميها شلح وأعبر.» (المصدر نفسه، ١٧٧)

وهنا نرى إشارة إلى إعلان نورى سعيد الحرب على الحكومات المتفقة التى تقودها بريطانيـــا. وقد أدت هذه الحرب التى انتهت فـــى النهاية بانتصار البريطانيين إلى بقاء البريطانيين فى العراق، وقد ســـرد الكاتب هذه المواجهة فى ضوء هدف الرواية وهو دراسة المواجهة بين إنجلترا والعراق.

للغة دورٌ أساسي في رواية "النخلة والجيران". فالكاتب، الذى يسعى إلى تصوير دقيق لوضع العراق بعد الحرب العالمية الثانية والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية القائمة فيه، اختار لغةً عاميةً فى معظمها، ويزخر نصه بالكلمات والتعابير والجمل العامية. وبذلک فإن العمل يمثل صورة دقيقة للمجتمع العراقى من حيث المحتوى واللغة. لقد أثّرت الشخصيات البسيطة والمتواضعة التى اختارها الكاتب فى اختياره لهذه اللغة. فبمجرد أن يدخل الكاتب الشخصيات فى حوار، يستخدم اللغة العامية دون استثناء: «قال صاحب وكأنما لم يسمع كلامه: بلاكت صار لک شهر وأنت تجر بفلوسک. ووين كلامک... وراء الصيف أكعد بالمدرسة؟ أبو مهدى... الصيف بعد ما خلص، راح تخلص فلوسک قبل ميخلص.» (المصدر نفسه، ٤٥)

بالإضافة إلى اللغة العامية التى تحاول أن تعكس أصوات الطبقات الدنيا لأنفسها وتقدم رواية تنتمى إليها، فى الحالات التى تستخدم فيها اللغة الفصيحة، فهى بسيطة وتهدف إلى خلق اتصال وثيق بين المتلقى ومحتوى الرواية: «جلست سليمة الخبازة على الحصير. كان الحصير حاراً. هزّت عجيزتها عليه بخفة الفرح، ولذة الانتصار. وكذلک كان خاصيک خفيفاً مرحاً، رجلاً قصير القامة، ضئيل الجسم، ارمنيا ابن ارمنى.» (المصدر نفسه، ٦٢)

حاول الكاتب استخدام اللغة لتصوير الواقع المعيش للمجتمع العراقى ونشطائه. اللغة فى الواقع هى بمثابة منصة تعكس ظروف المجتمع، واستخدام اللغة فى شكليها، العامية والرسمية، هو وسيلة للتواصل المناسب مع المتلقى. يحاول الكاتب استخدام اللغة كرافعة فعالة فى نقل الخطاب الثانوى للرواية.

التناصّ

يعدُّ التناصّ مكوّنا جوهريا فى مستوى التفسير ضمن نموذج فركلاف، وذلک لما يلعبه من دور حاسم فى تشكيل المعنى وتفاعل النصوص مع سياقاتها الثقافية والاجتماعية الأوسع. فدراسة التناص ليست مجرد تتبع لتأثيرات نصية سابقة، بل هى ممارسة خطابية بالغة الأهمية تكشف عن كيفية بناء النص لعالَمه وتأسيسه لموقفه الأيديولوجى من خلال

حواره الصريح أو الضمنى مع نصوص أخرى.

يـــرى تحليل الخطاب النقـــدى أن النصوص لا تُنتج فى فراغ، بـــل هى دائمًا فى حوار تفاعلى مع "مجموعات نصية تاريخية" تشـــكل مخزونًا مشتركًا من المعانى والقيم والتصورات الذهنية. وعندما ينخرط نص ما فى علاقة تناصية مع نص سابق – كالقرآن الكريم أو الأمثال الشعبية أو النصوص الأدبية – فإنه لا يقترض شكلاً لغوياً فحسب، بل يستدعى معه البنية الأيديولوجية والسياق الثقافى الكامن خلف النص الأصلى. ويمكن لهذا الاستدعاء أن يكون بهدف تأكيد السلطة الرمزية للنص المستدعى وتعزيز خطاب محـــدد، أو لمفارقته ونقده وإعادة تأويله لخدمة أغـــراض جديدة. وبالتالى، يمكّن تحليل التناص الباحث من: كشـــف مصادر السلطة الرمزية التى يستمد منها الخطاب شرعيته وقوته الإقناعية، وتتبع بناء الأيديولوجيا عبر دراســـة اختيار النص التناصى وطريقة إدماجه (تأكيدًا أو تحويلًا أو تشـــويهًا)، وفهم آلية التفاوض على المعنى التى تظهر كيف يتفاعل النص الجديد مع الدلالات الراسخة فى النصوص السابقة، سواءً لتكريسها أو لتحديها، مما يعكس صراعًا خطابيا أوسع فى نسيج المجتمع الثقافى. ومن هذا المنظور فإن الخطابات ونصوصها فى حد ذاتها لها تاريخ وتنتمى إلى مجموعات تاريخية، ويعتمد تفســـير السياق المتبادل بين النصوص على المجموعة التى نعتبر أن النص ينتمى إليها، وبالتالى على ما نقرأه كأرضية مشـــتركة ومفترضة بين المشـــاركين». وكما هو الحال مع السياق الظرفى؛ فإن المشـــاركين فى الخطاب قد يصلون إلى تفسيرات متطابقة أو مختلفة تقريبًا، وقد يتم فرض تفسير الطرف الأقوى على المشاركين الآخرين. (فركلاف، ١٣٧٩ش: ٢٣٠) ومن خلال الاعتماد على السياق التناصى، يمكن التعرف على خطاب العمل والوعى بالسياقات التى تشكلت فيها الرواية.

من خلال دراسة الســـياق التناصى لرواية "النخلة والجيران"، يمكن اعتبار العمل ينتمى إلى سلســـلتين. المجموعة الأولى هى النصوص الدينية، وخاصة القرآن الكريم. ويولى الكاتب اهتماماً خاصاً بنص القرآن الكريم وآياته المختلفة لبناء العالم السردى، ويظهر الاســـتخدام التناصى لهذا الكتاب بوضوح فى الرواية وتشكيل العالم السردى وعالم الخطاب السردى. على ســـبيل المثال، فى المثال التالى، يتم استخدام آية قرآنية

للتعبير عن نية الشخص فى الرواية:

المؤمـــن للمؤمن كالبنيان المرصوص، البارحة چنت يمه.. گلت له خاجيک طوختها، ولعبت نفسنا.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١١٧)

وهنا أبدى الكاتب رأيه مســـتخدماً عبـــارة من آية قرآنية. فى الآية ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾ (الصف: ٤)، يشير الله إلى ثبات صفوف المجاهدين فى معركة العدو، ولكن فى الرواية، يستخدم هذا التعبير للتعبير عن التضامـــن بين مواطنى المجتمع والدعوة إلى الوحدة والتعاون فى الأوقات الاقتصادية الصعبة. فى الواقع، تُستخدم هذه الرسالة فى سياق الرواية، الذى يدور حول انعكاس الأوضاع الاقتصادية الصعبة فى العراق بعد الحرب العالمية. وفى حالات أخرى كثيرة، يلاحظ اســـتخدام الآيات القرآنية فى الرواية. على ســـبيل المثال، فى الأمثلة التالية، التى تقول: «تلفت حســـين إلى الوجوه مستغيثاً فوجدها جامدة، وغير عازمة على أن تتدخل. وكان وحده أمام ابن الحولة فنهض. وجاءوا أبوهم عشاء يبكون. هذا ما وعدنا به وصدّق المصدق.» (المصدر نفسه، ١٧١)

ويســـتخدم الكاتب هنا الآية القرآنية ﴿وجاء أبوهم عشاءً يبكى﴾ (يوسف: ١٦) من ســـورة يوســـف، وســـياق الآية هو عن أبناء النبى يعقوب الذين ألقوا يوسف فى البئر وتظاهروا أنه مزقه الذئب، وجاءوا إلى أبيهم يبكون. اســـتخدم الكاتب هذه الآية ليعبر عن الوضع الصعب الذى يعيشه الناس حيث يجربون ظروفاً اقتصادية سيئة، وقد ســـبب لهم هذا الوضع الضيق والحزين. وهناک حالات أخرى يســـتخدم فيها فرمان آيات قرآنية، مثل: ﴿ودفعت بالتى هى أحســـن﴾ (فصلت: ٣٤) (المصدر نفســـه، ٣٠)، والآية: ﴿وعســـى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ (البقرة: ٢١٦) (المصدر نفسه، ٦١)، والآية: ﴿وما جزاء الإحســـان إلا الإحســـان﴾ (الرحمن: ٦٠) (المصدر نفسه، ١٣٨) ويحاول الكاتب دائماً استخدام الآيات القرآنية كأداة لتوسيع موضوع الرواية، وإيصال الأفكار والموضوعات المطلوبة، وتقوية خطاب العمل.

أما المجموعة الثانية من الســـياقات النصية التى تنتمى إليها الرواية فهى الأقوال الشعبية والرائجة التى يســـتخدمها الكاتب لتقدم جزء من خطاب وسرد القصة عندما

تكون هناك حاجة لذلک. هذه الجمل تتعلق بالإنجليز، والشـــخصيات الرئيســـية فى الرواية، وشـــخصيات مختلفة لعبت دورًا فيها. على سبيل المثال، فى المثال التالى، يقال: «وهناک مثل جاء على لسان مصطفى الانتهازى المخادع يقول فيها عن الانجليز «العدو اللى تعرفه أحسن من الصديق اللى متعرفه.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١١)

وفيمـــا يلى بيان لمصطفى، وهو المؤيد لبريطانيا: ينســـب مصطفـــى هذا المثل إلى الإنجليز، وخلاصة عبارته أن العدو الـــذى نعرفه خير من الصديق الذى لا نعرفه. فى الواقـــع، من وجهة نظر مصطفى، هذه الجملة هى ذريعة للتواصل مع البريطانيين، وهذه الشـــخصية التى تدافع عن وجود البريطانيين استغلت هذه الفرصة لتقوية خطابها فى الرواية. يســـتخدم الكاتب أحيانًا الأمثال والتعبيرات الشائعة لوصف حالته النفسية. على سبيل المثال، يقول فى المثال التالى: «تركت الحطب واستجارت بحصيرتها. وقالت لنفسها «كل الناس بالسطوح»، وآنى وحدى ألوب.» (المصدر نفسه، ١٩) أو فى المثال أدناه الذى يقول: «وها هى تعيد مثل تناقلته عن زوجها أبو حســـين يقول فيه «القلب مثل الوردة إذا خش بيه هم ذبل.» (المصدر نفسه، ١٣٩)

وتستخدم شـــخصية ســـليمة فى القصة هذه الأمثلة لوصف بؤسها، ونتيجة لذلک، تُستخدم مثل هذه التعبيرات لتعكس ظروف مجتمع بغداد فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، مما يســـاعد الجمهور، الذى هو على دراية بالأمثال، على إدراک النص الجديد بشكل كامل ودقيق من خلال عدسة هذه النصوص الأصلية.

مستوى التبيين

يهدف فركلاف فى هذا القســـم إلى دراســـة العلاقة الجدلية بين الأوامر الخطابية والممارســـات الاجتماعية (فركلاف، ١٣٧٩ش: ٩٦)، عند دراسة التبيين، يمكن اعتبار الخطاب أحـــد مكونات الصراع الاجتماعى ووضعه على المســـتوى الأوســـع (غير الخطابى) للصراعات وتأثير هذه الصراعات على الهياكل. (المصدر نفسه، ٢٤٥-٢٤٦) إن الغـــرض من مرحلة التبيين هو وصف الخطاب باعتباره جزءًا من عملية اجتماعية. (المصدر نفســـه، ٢١٤) ويصف الخطاب باعتباره فعلاً اجتماعيا ويظهر كيف تحدد البنى الاجتماعية الخطاب وما هى التأثيرات الإنجابية التى يمكن أن تحدثها الخطابات على

تلـــك البنى. يقصد فركلاف بالهياكل الاجتماعية علاقات القوة والغرض من العمليات والممارسات الاجتماعية هى العمليات والممارسات المتعلقة بالنضال الاجتماعى. لذا، يتمثل التبيين فى اعتبار الخطاب جزءًا من عملية الصراع الاجتماعى فى بُعد علاقات القوة. (المصدر نفسه، ٢٤٥) لذا، يؤخذ فى الاعتبار التفاعل المتبادل بين الخطاب والبنى.

رواية "النخلة والجيران" لغائب طعمة فرمان هى نتيجة مباشـــرة لظروف الخطاب الاســـتعمارى والأجواء الســـائدة فى العراق بعد الحرب العالمية الثانية. وهذه الرواية متأثرة بالخطاب من جهة، ومؤثرة فى الخطاب من جهة أخرى. (المصرى، ١٩٩٧م: ٣٩) فـــى هذه الرواية، يمكن رؤية آثار علاقات القـــوة فى المجتمع وتأثيرها بين مجموعات مختلفة من الناس. فى هذه الرواية، شرح فرمان بالتفصيل كيف تؤثر البنى الاجتماعية على الخطاب. إن البناء الاجتماعى المبنى على التمييز وعدم المساواة والفقر والظلم فى المجتمع خلق خطابا مزدوجًا من العاطفة والنضال إلى جانب خطاب الرضا والعاطفة والنضال. وفى واقع الأمر، كان نتيجة لخطاب الحرية والنفور من الاستعمار أن تغير هذا البناء لاحقاً، وفى عالم العراق الحقيقى فى منتصف القرن العشرين، واجهنا ثورة واسعة النطاق. ورغم أننا لم نصل بعد إلى هذه المرحلة من التغيير البنيوى فى رواية فرمان من حيث الزمن، فإننا نستطيع أن نرى فى الرواية الوعد بأن استمرار هذه العملية التآكلية سيؤدى إلى نهاية الاستعمار فى البلاد.

الرواية تأخذ جانب الحذر فى تصويرها للأحداث السياســـية والاجتماعية، نظراً للظروف القمعية، كما أن القضايا السياســـية والاجتماعية ليس لها تطبيق مباشـــر فى الرواية. وقد ذكر الكاتب هذه الحالة التى يلعب فيها الجواســـيس دوراً بارزًا ويجعلون الأمور وخيمة: «إنه يخاف من الجواســـيس فيقولها بسخرية، وتجنبا للملاحقة الأمنية، فعندما يتم ذكرها يقال: الحكومة الله يسلمها.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١١٨)

فى الواقع، وكما هو واضح، يتحدث الكاتب عن وجود جواســـيس فى المدينة، مما أدى إلـــى تفاقم الوضع الأمنى بعد الحرب العالمية الثانيـــة، وعلى الرغم من الظروف الاقتصادية السيئة، فإنه لا توجد إمكانية لانتقاد الحكومة أو الاحتجاج عليها.

يقول الدكتور عبد الله إبراهيم عن الرواية: «تعرضت رواية "النخلة والجيران" لحالة

شـــبه ركود فى نسق أحداثها، فتدهورت الأشخاص والأشياء والأماكن تدريجيا، وظل وعى الشخصيات بذواتهم وعلاقاتهم ثابتًا لا يتغير، وانتهت بالفشل، وبينما كان المتلقى يظن أن خبز الســـليمة منتج مفيد فى مجتمع استهلاكى، فإن حب "تماضر" فى بيئة خالية من الألفة، أصبح (الخبز والحب) ذريعة للخداع والاســـتغلال، إن حلم الإنسان الذى لا يشـــعر بالوعى يســـحبه إلى الوراء فى حركة دون نهاية، فيتعثر فى شىء أسوأ مما كان عليه، وكأن الحياة متاهة عظيمـــة أزيلت منها علامات النهاية.» (إبراهيم، ٢٠١٦م، ج ٢: ٧١) ولذلک تبقى الشـــخصيات على نفس المستوى وغير قادرة على تغيير ظروفها، ويصف الكاتب حالتها فقط فى السياق الاجتماعى للعراق.

تلعب عناصر اجتماعيـــة متعدّدة دوراً فى تطوير خطـــاب الرواية؛ منها التعددية الاجتماعية والقبلية فى المجتمع العراقى، التى تعمل كقدرة اجتماعية وتعزز علاقات القوة بين المؤسسات الاجتماعية. ويشكل دور الجماعات العرقية والعشائرية حقيقة أخرى من حقائق المجتمع العراقى، الذى يتسم أحياناً بالصراع وأحياناً أخرى بالتوافق أو التحرک معاً.

«العـــراق يضم مجموعة من الطوائف والملل، فعلى مر الزمن كان العراق أرضا لكل الناس، بصرف النظر عن دينهم أو ملتهم، فهو يتســـع للـــكل، لكن هذا لا ينفى وجود تباينـــات فيما بينهم، لكنهـــا لا تجعل العلاقة الاجتماعية محظـــورة، بل هناک تواصل وتكامل فى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، فيقول مصطفى المخادع لأم حسين:... الانجليز ما يأكلون إلا صمون، واتركينه من النصارى واليهود.» (فرمان، ١٩٨٨م: ١٧)

تعكس رواية "النخلة والجيران" الطبقات الاجتماعية المهمشة والمضطهدة فى المجتمع. الطبقات التى لا يسمع صوتها وتعيش تحت جلد المجتمع مع مشاكل مختلفة تنبع من بنية الســـلطة فى المستويات العليا. ولذلک لم يتجاهل الكاتب مساهمتهم فى القصة، ويؤمن بضرورة عكس أصوات هؤلاء الفقراء الذين هم كثيرون. إن مشـــاكل المعيشة خطيرة للغاية لدرجة أنها تمنع الناشطين عن التفكير فى الأمور السياسية. إنهم يهتمون بخبز الحياة وحوائجهم، وهذه الحالة تظهر نوعاً من المواجهة الطبقية والمادية بين الشعب والطبقة الحاكمة: «خاطر الله، اشـــبيكم مخبوصين بالسياسية؟ فكروا بالتموين، بالغلاء الاسود، وبالطحين المغشوش، والصابون، الشخاطة اللى اشتريها اليوم بسطش فلس.» (المصدر نفسه، ٧٣)

من أهم المواجهات بين أصحاب السلطة العليا وعامة الناس. وقد أشار الكاتب فى أعماله إلى صورة الاستعمار البريطانى، الذى كان تحت سيطرة الحكومة العراقية آنذاك، وما عاناه الشعب من فقر وبؤس نتيجة هذه الظروف. لقد أدى الفقر والحرمان إلى المواجهة بين الشعب والقوى الأجنبية والاستعمارية، مما أدّى إلى المواجهة بينهما؛ ولكن هذه المواجهة فقدت لونها بسبب فقر الشعب، وحكم هذه الجماعة وقوتها أدّى إلى تحول الشعب فيها، لأن الشعب صادق البريطانيين بدلاً من المواجهة لكسب لقمة العيش: «جاءت فترة بطالة انتابته فيها نوبة ورع ثانية انتهت حين اشتغل عند الانكليز كسائق لورى. وهناك ذاق الويسكى، وطعم المعلبات يشريها من الجنود الانكليز المفلسين حتى ظهر به ضابط محملاً بالمعلبات حمولة تكفى سرية كاملة من الجنوب فطُرد، وعانى البطالة مرة أخرى. ولكن عمله فى الجيش البريطانى دلّه على تجارة رابحة لاتكلف غير رأسمال متواضع واستخدام ذكى لبعض ذوى الصلات والخبرة بالجيش الحليف.» (المصدر نفسه، ٦٥)

إن المواجهة بين القوى الأجنبية والشعب أدّت فى بعض الأحيان إلى مواجهة بين الطبقات المختلفة للشعب، وليس هناك مواجهة بين قطاعات من الشعب والقوى الأجنبية. فى واقع الأمر، إن علاقة بعض الشعوب بالقوى الاستعمارية والأجنبية هى علاقة مبنية على الصداقة والتنازل. حرص الكاتب على انعكاس هذا التوجه لدى الشعب العراقى بواقعية، مُصوِّرًا أشخاصًا يجدون وجود الإنجليز مفيدًا ويعتبرونهم أصدقاء. على سبيل المثال، نرى فى الحوار التالى بين مصطفى وإبراهيم: «لا أم حسين، الانكليز مو أعداء... ماكو عدو ينفع. وأنت دتشوفين. وأحسَّت به ينظر إلى يدها الماسكة بالدينارين وساورها شعور غير مريح.» (المصدر نفسه، ٩٥)

وهنا، كما يمكن أن نرى، فإن مصطفى، على عكس سليمة، لا يعتبر البريطانيين أعداءً ويدعو إلى استمرار الانتداب البريطانى على العراق واستمرار حضورهم فى البلاد. وفى الواقع، هناك صراع على المستوى الخطابى بين الخطاب الاقتصادى والخطاب القومى بين الشخصيات العراقية، ولم تصل الشخصيات حتى الآن إلى نتيجة حول هذه القضية. وفى ضوء ذلك يصف الكاتب من خلال مركزية الراوى الوضع فى أحياء بغداد بأنه صعب وغير محتمل اقتصاديا بعد رحيل القوات البريطانية: «فى بداية

الشـــتاء بدأت القوات الانكليزية تغادر بغداد. غادرتها بارتال طويلة متجهة صورت الغرب. وقل ظهور الأجانب فى شوارع العاصمة، وتزاحمهم على دور السينما. وبدأت معســـكراتهم تتقلص أو تنزوى فى الصفوف الخلفية حتى فرغ المعسكر الموجود قرب دائرة السكك، ومعسكر الصالحية والوشاش. وترك الانكليز ورائهم السواق والعمال والموظفين والسماســـرة الذين استقدموهم وبيوتاً سوداء وبغايا... وامتلأ مقهى الشواكه بسواق عاطلين جلســـو على تخوت عارية بالقرب من الكراج ليسهل عليهم اقتناص الشغل وهو طاير.» (المصدر نفسه، ١٣٦) وهنا، كما يمكن أن نرى، يصف الكاتب الوضع المؤســـف والمرير فى بغداد بعد رحيل البريطانيـــين. ونتيجة لهذه الحادثة تفاقمت حالة الفقر والبؤس فى البلاد وأصبح الوضع الاقتصادى غير مســـتقر. مثل هذه الصورة تبرر الوجود الفعلى للبريطانيين فى العراق وتجعل وجودهم يعتبر مصدر خير.

وبشكل عام، يمكن القول إن الرواية تعكس بشكل مقصود المجتمع العراقى بعد الحرب العالمية الثانية، وبدلاً من إظهار الصراعات الرئيســـية بين قواته والقوى الاستعمارية، فإنها تسعى إلى عكس الحقائق الأساســـية للمجتمع العراقى التقليدى. مجتمع لم يصل بعـــد إلى نتيجة مهمة فى مواجهة القضايا الرئيســـية وما زال منشـــغلاً بقضايا صغيرة ويومية. (العانى، ١٩٩٤م: ١٢٧) قيل فى زمن نشر هذه الرواية: «هذه نتاج حياة قضاها الكاتب فى حى شـــعبى ببغداد. ويؤكد الكاتب نفسه أنه رجل بسيط من عائلة مجتهدة، وأن هدفه فى الحياة والأدب لا يتجاوز هذا الإطار، وهو يحبهم. إنهم ليســـوا أصدقائى ومعارفى فحسب، بل أقاربى أيضًا.» (جاسم، ٢٠٠٤م: ٩) بناءً على هذه المقدمة، تُظهر الرواية التناقض بين شخصية "سليمة" رمزًا للمرأة العراقية الطاهرة الكادحة، وشخصية "مصطفى" ناهبًا يسعى للســـيطرة على ممتلكات الفقراء، ومن بينهم سليمة. ومن خلال تناولها قضايا الحياة اليومية، تُصوّر الرواية تفاعلات القوى الداخلية والشعبية.

النتيجة

على المســـتوى الوصفى، تعتبر رواية "النخلة والجيران" عملاً شـــعبياً يتميز باللغة المحلية والاستخدام المتكرر للألفاظ والتعابير العامية، وبلغة فصيحة وأدبية، وبنية رمزية

وهادفة. فى هذه الرواية، من عنوانها إلى تطورات السـرد المختلفة ووصف الأحداث، أخذ الكاتب بعين الاعتبار سـياق المجتمع العراقى، وأبدع عملاً يتناسب مع الظروف والروح السائدة فى المجتمع. يحاول هذا العمل التواصل مع المتلقى لغويا، ويعتبر التكرار والأدوات الأدبية والتقنيات الأخرى وسيلة لإقامة اتصال مبكر وفعال مع القارئ.

رواية غائب طعمة فرمان تحكى قصة سياسـية واجتماعية على مسـتوى التفسير وغالباً ما تسـعى إلى تحليل الأوضاع الاقتصادية السـائدة فـى العراق بعد الحرب العالمية الثانية. اختار الكاتب أبطال الرواية من الفصائل المؤيدة والمعارضة لبريطانيا، وبالتـوازى مع ذلك، خدمت لغة العمل فى نقـل القصة. وقد تطرق الكاتب إلى تأثير حربين مهمتين فـى بناء خطاب العمل. أولاً والأهم من ذلـك، كانت الحرب العالمية الثانية والحـرب العالمية الثالثة هما الحربان بين العـراق وبريطانيا، مما أدى إلى بقاء البريطانيين فـى العراق. ورغم أن الكاتب لا يحبذ وجود البريطانيين فى بغداد، إلا أن الرواية تظهر مؤشـرات على التأثير الإيجابى للبريطانيـين على اقتصاد البلاد ورغبة الناس فيهم بسبب تحسن معيشتهم.

وعلى مستوى التبيين فإن رواية "النخلة والجيران" تشير إلى وجود خطاب الجمود والركود لدى المناضلين. فى الواقع، يظهر عمل الراوى حذر الشعب ومحافظة فى مواجهة الاسـتعمار، وفوق ذلك، يظهر الصراع بين المطلعين حول قضية الوجود البريطانى فى العراق. ورغم أن حالة التشـدد فى المجتمع غير مرغوب فيها، فإن الكاتب يعتبر القمع السياسـى السائد ووجود الجواسيس سبباً آخر لاستمرار القمع فى المجتمع. وتشارك طبقات مختلفة فى تشـكيل الخطاب والأيديولوجية فى القصة، وتعكس الرواية قضايا المجتمـع الطبقى الأدنى. يضع هذا المجتمع الأمـل فى كل فرصة ممكنة، كما أن وجود البريطانيين جلب لهم السعادة؛ لأنه أعطى أعمالهم دفعة طفيفة.

المصادر والمراجع

آقاگل‌زاده، فردوس. (١٣٩٠ش). تحليل گفتمان انتقادى. چاپ دوم. طهران: علمى وفرهنگى.

ابراهيم، عبدالله. (٢٠١٦م). السردية العربية الحديثة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

باركـر، ک. (١٣٨٧ش). مطالعات فرهنگى، نظريه وعملكرد. ترجمه نفيسـه حميدى-مهدى فرجى.

پژوهشگاه مطالعات فرهنگی واجتماعی.
پهلوان‌نژاد، محمدرضا ونصرت ناصری‌مشـــهدی. (١٣٨٧ش). «تحلیل مـــتن نامه‌ای از تاریخ بیهقی با رویکرد معنی شـــناختی کاربردی نامه ســـران تگین‌آباد». (تحلیل نص رسالة من تاریخ البیهقی مع تطبیق المنهج الدلالی علی رســـالة قادة تاجین آباد). مجله کلیة الآداب والعلوم الإنسانیة بجامعة فردوسی مشهد. دوره ١٦. شماره ٦٢. صص ٥٨-٣٧
جاسم، فاطمه عیسی. (٢٠٠٤م). غائب طعمة فرمان روائیاً. بغداد: دارالشؤون الثقافیة.
حدادی، الهام ومصطفی گرجی. (١٣٩١ش). «کردار گفتمانی و اجتماعی در رمان مدار صفر درجه بر پایه الگوی تحلیل گفتمان فرکلاف». مجله نقد ادبی. دوره٥. شماره ١٨. صص ٤٩-٢٥
خانیکی، هادی. (١٣٨٧ش). در جهان گفتگو. چاپ اول. طهران: هرمس.
شلبیه، زهیر. (١٩٩٦م). غائب طعمة فرمان: دراسة مقارنة فی الروایة العراقیة. بیروت: دارالکنوز العربیة.
العانی، شجاع مسلم. (١٩٩٤م). البناء الفنی فی الروایة العربیة فی العراق. بغداد: دارالشؤون الثقافیة العامة.
عکاشـــه، محمود. (١٣٩٨ش). تحلیل گفتمان در پرتو نظریه‌ی زبان‌شناسی نوین. ترجمه فاطمه اکبری زاده-مرضیه محصص. طهران: انتشارات نظری.
فرقانی، محمد مهدی وســـید جمـــال الدین اکبرزاده جهرمـــی. (١٣٩٠ش). «ارائه مدلی برای تحلیل گفتمان انتقادی فیلم. مطالعات فرهنگ وارتباطات». دوره ١٢. شماره١٦. صص ١٥٧-١٢٩
فرکلاف، نورمن. (١٣٧٩ش). تحلیل انتقادی گفتمان. ترجمه فاطمه شایسته پیران و دیگران. طهران: وزارت فرهنگ ارشاد اسلامی، مرکز مطالعات و پژوهش‌های رسانه‌ها.
فـــرکلاف، نورمن. (١٣٨٧ش). تحلیل انتقادی گفتمان. گـــروه مترجمان. ج ٢. طهران: دفتر مطالعات وتوسعه رسانه‌ها.
فرمان، غائب طعمة. (١٩٨٨م). النخلة والجیران. بغداد: دارالفارابی.
مرتاض، عبدالملک. (١٩٩٨م). فی تقنیات السردیة. الکویت: دارالمعرفة.
المصری، خالد. (١٩٩٧م). غائب طعمة: حرکة المجتمع وتحولات النص. دمشق: دارالمدی.
مکاریک، ا. (١٣٩٣ش). دانشنامه نظریه‌های ادبی معاصر. ترجمه مهران مهاجر-محمد نبوی. طهران: آگه.
النعمـــان، أحمد. (١٩٩٦م). غائب طعمة فرمان: ادب المنفـــی والحنین إلی الوطن. بیروت: دار المدی للطباعة والنشر والتوزیع.
یارمحمدی، لطف‌الله. (١٣٨٣ش). گفتمان‌شناسی رایج وانتقادی. چاپ اول. طهران: هرمس.
Wodak, R. & Weiss, G. (2003AD) *Critical Discourse Analysis Theory and Interdisciplinarity*, Basingstoke: Palgrave Macmillan.
Wodak, R. & Meyer, M. (2001AD) *Methods of Critical Discourse Analysis*, London: SAGE Publications.